الأدب الافريقي القديم

• الحمار الذهبي لأبوليوس

✵ من هو أبوليوس ؟ :

لوكيوس أبوليوس الماضوري أو **أفولاي** أحد كتاب القرن الثاني ولد في مادورة ، مادوروش قرب سوق اهراس الجزائر حاليا في 125 م وتوفي إبان الامتداد المسيحي تعلم بقرطاج و أثينا وايطاليا وآسيا الصغرى وتشير بعض المصادر إلى اشتغاله محاميا بروما ثم عاد إلى افريقيا وعاش بقرطاج مفتخرا بأصله الأمازيغي الكدالي النوميدي.

وإن كان بعض الدارسين ينسبونه إلى أدباء اللاتين منهم واميل فاكيه محمد غنيمي هلال الذي ينسب رواية الحمار الذهبي إلى الأصل اليوناني ،أما حميد لحمداني فادرجه ضمن كتاب الأدب الروماني القديم الذي كتب باللغة اللاتينية و إن كان محمد شفيق ومحمد حنداين وعلي فهمي خشيم وعباس الجراري قد أرجعوا نسبه إلى أمازيغ شمال افريقيا ، وذهب المؤرخ الفرنسي شارل اندريه جوليان إلى نسبه الافريقي الامازيغي هذا الاختلاف يوضح مدى شهرة أبوليوس وطبيعة هويته الجزائرية بمنبتها الافريقي والأمازيغي الأصل وروماني الجنسية وإغريقي الثقافة والفكر وشرقي المعتقد.

كتب عدة خطب ومقالات جمع بعضها تحت اسم " المنتخبات " له كتب فلسفية منها " **أفلاطون ومذهبه** " **في إله سقراط**" " في الكون" نظرا لإعجابه الشديد بالفلسفة السفسطائية والفلسفة الافلاطونية المحدثة ، والفلسفات ذات الطبيعة

الصوفية الروحانية التي تضمن للمؤمنين حياة أبدية سعيدة ، وكتبا أخرى في مجالات عديدة ، كتب روايته " الحمار الذهبي " بعد سنة 170 .

يرجح أنه اقتبسها من كاتب يوناني بقي ملخص من قصته ينسب للفيانوس السموساطيّ معاصره السوري، لكنه صاغها بأسلوبه الفذ وأعطاها إلى جانب طابعها الشيق بعدا فلسفيا وطابعا فنتازيا . وتبقى رواية الحمار الذهبي مصدرا مهما لمعرفة متعمدة لأكثر من معنى ، وهي تمثل أول ظهور للأدب الأمازيغي إلى جانب أعمال تيرينيس آفر المسرحية .

مثلت قرطاج مدينته الفاضلة التي كانت عاصمة فكرية وسياسية ونبغ في المسرح حيث كان القرطاجيون يهتفون به في المسارح وكان يقول لهم :" إني لا أرى في مدينتكم إلا رجالا كرعوا من مناهل الثقافة ، وتبحروا في جميع العلوم ، أخذوا العلم صغارا وتحلوا به شبانا ودرسوه شيوخا ، إن قرطاج لهي المدرسة المقدسة في مقاطعتنا وهي عروس الشعر في افريقية وملهمة الطبقة التي تلبس الحلة " تاريخ افريقيا الشمالية ، شارل اندري جوليان ص 251 .

أتهم بممارسة السحر مما اضطره إلى الدفاع عن نفسه بتأليف كتاب " في السحر " وسبب هذه التهمة أنه صادف أثناء اقامته في طرابلس وقوعه في مغامرة " ذلك انه ما إن تزوج من أم أحد اصدقائه ، وكانت إلى ذلك الوقت ممتنعة امتناعا شديدا من التزويج ثانية حتى أتهم بأنه سحرها وأخذ أحد المحامين على نفسه أن يقيم الدليل على براءته وألقى باللائمة على خصومه ، لأنهم خلطوا بين الفلسفة والسحر وحرر خطابه بعد ذلك في صيغة ايجابية فأصبح يعرف بالأبولوجيا هذا ما جعله ينعت بمواصفات عدة منها غريب الأطوار ، وكثير المتناقضات فهو جدي وطائش ومتطير وشاك ومعجب بنفسه وكان يدافع عن المستضعفين .

❋ رواية الحمار الذهبي الوصف والمضامين :

سميت بالتحولات أو التقمصات أو المسوخ أو الحمار الذهبي طابعها فنتازي وألف في أحد عشر جزءا ، وقد سماها جميل الحمداوي برواية " الحمار الوردي " وذلك لتكرار كلمة الورد أو الوردي تتكرر مرارا في متن الرواية إذ وصف لوكيوس بأنه وردي البشرة ووصف حبيبته بأنها وردية اليد ، كما كان يحلم بالورد طيلة فترة تحوله ويفر كلما رأى الورد أو ما يشبه الورد لأنه يجسم الخلاص بالنسبة إليه .

كما ترجمها عمار جلاصي وأبو العيد دودو عن اللاتينية وترجمها علي فهمي خشيم عن الانجليزية .

راوي القصة هو **لوسيان** حيث حوَّل البطل **لوكسيوس** إلى حمار ، الذي سيعود إلى صورته الآدمية بعد مغامرات عديدة تصحبها قصص جزئية متداخلة تضمينا وتشويقا وتوليدا كقصة " بسيشية وكوبيدون".

رواية الحمار الذهبي ذات طابع ملحمي وفانطاستيكي غريب تعتمد خمس مراحل درامية وهي :

1 - **لحظة البداية المتوازنة :** حيث يعيش البطل (الراوي) حياة عادية رغم بعض الصعوبات المحيطة به فلم يكن هناك ما يعسر حياة لوكيوس مع حبيبته فوتيس وإن كانت عصابة مدينة هوباتا يتلذذ لصوصها بقتل من يمر عليهم وسلب ممتلكاتهم وثرواتهم النفيسة .

2- **لحظة التوتر الدرامي :** يتحول لوكيوس إلى حمار ذهبي عن طريق الخطأ ، وذلك بسبب رغبة الساحرة بامفيلا زوجة ميلون في التحول عن عالم البشر والارتقاء إلى عالم المثل ، لأن حبيبته فوتيس ناولته دهنا ساما لا يحول الإنسان إلى طائر كما كانت تظن عندما أخذته من صندوق سيدتها بل حوله إلى

حمار ، " ... **أخذت أقلب البصر ولا وسيلة للخلاص في كل أعضاء بدني فلا أراني طيرا بل حمارا فاهم بالشكوى مما فعلت فوتيس بي لكني سلبت الحركة والصوت البشريين فما أستطيع سوى مط شفتي والرنو إليها بعينين دامعتين موجها غليها شكاتي الخرساء** " (ينظر الرواية) في هذه العقدة التي تتمثل في التحول الفانطاستيكي والامتساخ الحيواني تبدأ لحظة اختلال التوازن الذي يحكم أغلبية القصص العجائبية .

3- **لحظة الصراع** : تمثل لحظة صراع لوكسيوس مع الواقع المتعفن الذي لم عانى منه إنه عالم الاحتيال والزيف والفساد وتردي وضع الإنسان

4 – **لحظة النهاية** : تمثل لحظة إعادة التوازن بعد أن عرف لوكيوس الحمار تجارب عديدة سيئة وحسنة مع الرهبان السوريين والطحان والبستاني والجندي والأخوين الطاهيين إلى أن أنقذه من هذا المسخ الحيواني ذلك الكاهن المتعبد الذي حدثه عن قدرة الآلهة ايزيس مما دفع صديقه لوكيوس مناجاتها أثناء منامه بهدف خلاصه فيتحول إلى كينونته البشرية ويصبح خادما وفيا لمعبد الآلهة ثم أصبح راهبا فكاهنا كبيرا بعد ترقيه في مراتب العبادة بعد اكتشافه أسرار أوزيريس .

❋ خصائص الرواية الفنية :

- ✓ **قدمت** رواية الحمار الذهبي قراءة انتقادية ساخرة للمجتمع على مستوى المجالات الحياتية المختلفة ، مشوهة سلوكيات السحرة ومشتغلي القضاء الروماني فقد أعلنت الرواية على نهاية الامبراطورية الرومانية وإفلاسها أخلاقيا ، وتضمنت فكرة المسخ لدى الإنسان القديم المرتبطة بفكرة عقاب الآلهة المسلط على المبتعدين عن الروح الالهية والقريبين من الحياة الحيوانية البئيسة .

- ✓ تداخل الواقع والخيال والسحر مع العقل ضمن نص الرواية مشكلا الوعي العجائبي والغرائبي لما نسميه باللاوعي حيث تبنى الكاتب منظورا ذاتيا ورؤية داخلية باستخدام ضمير المتكلم وتقنية التوليد أو التضمين القصصي .
- ✓ روعة الوصف وبراعة الأسلوب والاكثار من الاحالات والمستنسخات التناصية وتشغيل الخطابات الدينية والأدبية والفلسفية والصوفية والأسطورية .
- ✓ تصوير مشهدي ملحمي بانتهاج القاص منهج الشاعر في نزعته إلى الواقع بوصف ما تخيل من أحداث موافقا روح عصره المؤمن بعالم الأخطار والمغامرات الغريبة ، لذلك سبقت القصة الخيالية القصة الواقعية كما سبق الشعر النثر الفني .

❋تأثيرها على الرواية الغربية والعربية :

لقد استثمرت فكرة المسخ موضوع رواية الحمار الذهبي في كثير من الكتابات الاوروبية المعاصرة ، بتغيير نسبي يواكب روح العصر وأحداثه فلم تعد الآلهة مسببة العقاب بل يتم رفض الابطال المنبوذين من طرف المجتمع فتظهر السمة الواقعية للحدث مخالفة ما درجت عليه القصص الأسطورية القديمة والخرافية .

فكان **جيمس جويس وكافكا** و**دو موباسان** و**ألفونس دوديه** من أكثر المتأثرين برواية الحمار الذهبي لأفولاي ، إذ تبدأ رواية كافكا "التحول" بالعبارة التالية :" **ذات صباح بعد الاستيقاظ من حلم مزعج فتح غريغوار عينه في سريره وقد تحول إلى حشرة** " .

ومن أهم النصوص الفانتاستيكية تحضر رواية الجسد لروبير شكلي وتتمثل غرائبيتها في زرع جسد حيوان في عقل بشري.

كما ظهرهذا النمط من الكتابة ضمن كتابات عديدة عربية قديمة وحديثة منها :

ألف ليلة وليلة وقصة سيف بن ذي يزن وما كتبه الرحالة العرب وخاصة ما أورده ابن بطوطة من ظواهر عجائبية في كتابه " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"

كما تعود فكرة المسخ إلى كونها تقنية معنوية هدفها تصوير حالة الأبطال داخل محيطهم سواء كان نفسيا أو اجتماعيا فيتحول الفرد البشري عن طبيعته المعهودة ليدخل عالما من التيه والضياع والشعور بالاغتراب الوجودي ، يقول محمد زفزاف في روايته المرأة والوردة :" **تخيلت أن الناس قرودا لأنهم يستطيعون أن يفهموا بعضهم البعض إلا بالحركات " .**

ومن الروايات العربية التي استفادت من هذا المنحى نجد:

- رواية " الحوات والقصر" للطاهر وطار

- " التجليات " لجمال الغيطاني

- " حمائم الشفق " لخلاص الجيلاني

- "ألف عام من الحنين " لرشيد بوجدرة

- " إختراع الصحراء " للطاهر جاووت

- " هابيل" لمحمد ديب

-" النهر المحول " لرشيد ميموني

- "ألف ليلة وليلتان " لهاني الراهب

- " أحلام بقرة " لمحمد الهرادي

- " سماسرة السراب و محن الفتى زين شامة " لبنسالم حميش

- "المباءة – ورحيل البحر " لمحمد عز الدين التازي

- " عين الفرس " لشغموم لميلودي

- " الجرذان" ليحيى بزغود